هذه الرموز أنباءً غيبية في مثلث الزمان: ماضياً وحالاً واستقبالاً، مما يهمّ الرسول والأمة الإسلامية، أو حقائق علمية معرفية مما تختص بالرسول ﷺ وأهليه المعصومين، وقد يبرزون منها ما نستأهلها دون جميعها، فإن منهما ما لا يتحمله غيرهم وهم في ذلك درجات.

ومما يؤكد أنها تعني معاني سرية أن كلًّا منها آية فذّة في سورتها[١] أو آيتين[٢]. إلّا قلة قليلة منها هي ضمن آيتها[٣].

وكيف تكون آية أو بعض آية لا تعني أيَّ معنىً، إن هي إلّا قولة فارغة هُراء وكتاب الله تعالى منها براء.

وقد نتنبأ من بعضها أن هذه الحروف التلغرافية الرمزية تعم النبيين أجمع وإن لم تذكر في كتاباتهم السماوية: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾[٤] فالمشار إليه بـ«كذلك» البعيد البعيد في محتد الوحي ليس إلّا حم عسق: كذلك: الرمز المستسر ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ وحياً خاصاً لا يعدو أصحاب الرسالات إلى المرسل إليهم!

وقد يكون بينها وبين السور المتصدرة بها ارتباطات، وإلّا لماذا اختصت هي بها دون سواها، ولماذا لم تجتمع في سورة فذة بحيالها، اللهم إلّا أن تحمل بعض ما مضى من وجوه سلفت من إسكات وتنبيهات أم ماذا؟ مما لا نتأكدها إلّا أن يؤكدها أهلوها[٥] ولتطلب في محالها بطيّات سورها.

---

(١) كما في ٢٤ منها.

(٢) كما في حم عسق.

(٣) كما في ست منها: يوسف - الحجر - النمل - ص - ق - ن.

(٤) سورة الشورى، الآيات: ١ - ٣.

(٥) كما في بعض أحاديثنا مثل ما رواه الصدوق بإسناده عن الإمام الحسن بن علي العسكري في حديث طويل قال فيه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ فِيهِ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢] أي: يا محمد! هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها ألف ولام وميم وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين (البرهان ج ١: ٥٤ ح ٩).

ومهما يكن من شيء فلا تعني أهمية خاصة للمتصدرة بها إذ خلت عنها مهامّها كالحمد والإخلاص، اللّهم إلّا أن تكون هذه بآياتها تكفي معونة رموزها، فإن الحمد - مثلاً - وهي السبع المثاني: سورة هي صورة محكمة عن القرآن كله.

وقد تعني الأخبار القائلة أنها أسماء الله مقطّعة في القرآن[١] العلامات الرمزية الخاصة بالله التي يختص بها رسول الله ﷺ فهي تعني ما تعنيه الأخرى أنها رموز بين الله ورسوله، أم ماذا.

فمهما يكن من شيء فإنها من أفضل القرآن، ولها معاني «من قرأ حرفاً منها فله حسنة»[٢] والحرف لفظياً كلمة جانبية، ومعنوياً معنى جانبيّ، فإنه طرف الكلام فإن قرأت: ألف - أو - لام - أو ميم، قاصداً التي في ﴿الٓمٓ﴾ أم ماذا، فقد قرأت حرفاً لها حسنتها، كما إذا قصدتها حرفاً من غيرها في سائر القرآن كما يروى عن رسول الله ﷺ[٣] مما يدل على أن لمفردات حروف الكلمات في الآيات معانٍ كما لجملاتها، فهي إذاً تنحو منحى رموز القرآن وللبحث عنها مجالات أخرى علنا نأتي عليها.

---

(١) الدر المنثور ١: ٢٢ عن ابن مسعود قال: الم حروف اشتقت من حروف هجاء أسماء الله، ومثله عن ابن عباس وعامر والسدي وقتادة، ولا نجده مسنداً عن رسول الله ﷺ ولا عن أئمة أهل بيته عليهم السلام فلا حجة فيه.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٢ - أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه وابن الضريس ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا تقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف.

(٣) الدر المنثور ١: ٢٢ - أخرج محمد بن نصر والبيهقي في شعب الإيمان والسنجري عن عوف ابن مالك قال قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله به حسنة. لا أقول بسم الله ولكن باء وسين وميم، ولا أقول: الم ولكن الألف واللام والميم.

ثم وهي تعتبر آيات[١]، إذاً فحروفها كلمات دالات على ما تعني كبرقيات رمزية بين الله وأهل الله الخصوص كالرسول ﷺ وأهليه عليهم السلام وإن كانت حرفاً واحداً ك: ن - ق - ص فضلاً عن كثراتها[٢].

وليس لنا أن نتمسك في معانيها إلّا بُعرى وثيقة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ الثابتة اللائحة، دون ما يرويها أرباب السنن في روايات آحاد لا تغني في تفسير آيات مفصلات فضلاً عن تلكم المحكمات وهي مفاتيح كنوز القرآن وصفوة القرآن!

وكون هذه رموزاً كسائر التأويل في القرآن لا يناحر الأوامر المؤكدة للتدبر في القرآن، حيث التدبر خاص بالممكن تفهمه، دون سواه الخاص بالرسول ﷺ كبعض التأويل لآيات مفصلات، وكعامة التأويل لسائر الحروف المقطعة التي لا دلالة فيها وضعياً حتى تتحمل التدبر والتأويل، فمن القرآن ما له تأويل وتنزيل، مما يتحمل تأويلاً على ضوء التنزيل، كسائر القرآن، ومنه ما له تأويل ولا تنزيل كالحروف المقطعة، والآيات الآمرة بالتدبر تعني الميسرة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣] والعربية: اللائحة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[٥] ولا عربية دلالة ولا إنذاراً بهذه الحروف فإنها ليست عربية ولا أعجمية ولا أية لغة موضوعة، إنما هي حروف كأسرها،

(١) ولسوف نعرف على ضوء تأملات أكثر أن لحروف القرآن وكلماتها وآياتها وسورها وأسمائها - بترتيباتها وتركيباتها ومحالّها الخاصة، لكلّ ذلك إشارات كامنة يمكن استنباطها واستبطانها لحدّ ما.

(٢) كما نرى في كتب القرآن وتؤيده روايات.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١٢.

مفردة أو مجموعة تتألف منها كافة اللغات، مهما اختلفت في شكلياتها فإنها متشابهة في مخارجها الصوتية على سواء.

فمهما كان التدبر في سائر القرآن راجحاً أو واجباً، فهو في هذه الحروف غير ممكنة إذ لا مجال فيها، اللّهم إلّا ما ثبت في تأويلها عن أهليها، أم تخرساً بالغيب أو تخرصاً: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾[١]: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٢]!

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾:

وترى لماذا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة البعيد، وهذا الكتاب بين أيدينا قريب قريب؟ ثم وما هو ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؟ وكيف ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ وفيه مرتابون كثير؟ وكيف هو فقط ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؟ فما بال غير المتقين يعذبون وليس القرآن لهم هدى؟!.

ذلك لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة تلميحة إلى علوّ المحتد، وبعد المنزلة لربانية الكتاب ككلّ: معنوياً ولفظياً، على كونه قريباً منّا كتابة وسماعاً وتلفظاً، ثم وقريباً إن تدبرنا فيه معنوياً حسب الإمكانيات والقابليات، فهو إذاً غريب عنا، قريب منا جماع الغربة القربة، التي تستحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ مرة أُخرى.

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ علّه أُم الكتاب لدى الله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٣] فهذا الذي تفصيله بين يديك ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾.

أو والذي أنزل على الرسول ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٤]

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٤) سورة القدر، الآية: ١.

نـزولاً مـحـكـمـاً: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] وهـذا تفصيله ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾: أو الذي أجمل في أم الكتاب «سورة الحمد» هو ذلك الكتاب لا ريب فيه.

أو الذي بشر به النبيون من قبل كما نجد في كتاباتهم، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ المعهود ذكره عنهم من ذي قبل ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾.

أم هو كل ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ففيه كلّ ما أنزل من كتاب وزيادة، فهو هو كل ما كتبه الله وأوحاه إلى أنبيائه طوال الزمان الرسالي ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾... فـ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾

في هذه الخمس، و﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ هُدٗى﴾ خبران بعد خبر[2].

أو ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾: الكتاب الخماسي المعنى لا ريب فيه! فـ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ مشاراً ومشاراً إليه مبتدأ: و﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ خبره، أو وصفه و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبره[3].

فالمعنى على الترتيب: «ذلك» أمّ الكتاب. ٢ - المنزل ليلة القدر. ٣ - النازل جملاً في سورة الحمد. ٤ - الذي بشر به من قبل. ٥ - كل الكتاب: «لا ريب في شيء من ذلك» ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يهديهم دون ريب كما أنه لا ريب فيه. ٦ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾. ٧ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ دون ريب ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾!..

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) هذه الوجوه تشترك في كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبره ثم ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] خبر ان بعد خبر أم وصفان.

(٣) هذا على كون ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ مبتدأ كله. فـ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ إما خبر، و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ وصفه أو خبره الثاني، أم حال و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبره، وكل هذه صحيحة تتحملها ألفاظ الآية.

فسباعية الوجوه تعني سباعية المعنى دون تناحر واختلاف، والقرآن حمّال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وهذه كلها حسنة يساعدها أدب اللفظ ويراعة المعنى.

وترى لماذا لم يفتتح الكتاب بـ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وإنما بفاتحة الكتاب، فهل إنه خارج عن الكتاب؟.

الجواب: أنها السبع المثاني عدلاً للكتاب، فهي هي كتاب، والقرآن العظيم كتاب وأين كتاب من كتاب؟ من إحكام في فاتحة الكتاب، وتفصيل في سائر الكتاب، ولتكن الحمد مشاراً إليها في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ضمن كل مشار إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾.

ثم ترى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كيف يشير إلى كل الكتاب ولمّا يكمل تفصيله مهما كمل محكمه، وليس محكمه - فقط - النازل على الرسول ليلة القدر - ليس هو هدى للمتقين، إنما للرسول والرسول فقط، ثم وتفصيله هدىً؟

أقول: ﴿ذَٰلِكَ﴾ نزلت حين نزلت، تعني الكتاب المفصل ما نزل منه وقتها وما لم ينزل، فإنه كله في علم الله، وهو كله هدى للمتقين بطبعه، في دوره ووقته، ثم تعني الكتاب الحاضر كله بعد تنزيله كله وتأليفه كما هو الآن، كما تعنيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ و«القرآن» وسواهما من أسماء تعني القرآن كلّه، في القرآن كلّه.

أو أنها تعني بالفعل ما نزل قبلها من المكيات، عناية الواقع الماضي والحاضر، ومن ثم تعني ما سوف ينزل إلى آخر العهد المدني عناية المستقبل الأكيد الذي هو بمنزلة الحاضر.

وكما القرآن والكتاب كله قرآن وكتاب، كذلك بعضه، وحتى سورة قصيرة منه كالكوثر، المتحدى بها الناكرون، فلا غرو أن يكون «ذلك» إضافة

إلى ذلك - تعني البعض الحاضر منه، فإنه نور وهدى بأبعاضه كما يهدي بمجموعه!، كما وأن من «ذلك» سورة الحمد النازلة قبلها بأعوام، والنازلة قبل القرآن المفصل كله.

وللقرآن أسماء تعني مواصفاته بكيانه المتين، فإنه: كتاب - قرآن - فرقان - مبين - بيان - تبيان - برهان - عظيم - عزيز - كريم - صراط مستقيم - حكم - ذكر - موعظة - نور - روح - مبارك - نعمة - بصائر - رحمة - حق - فصل - هاد - شفاء - مهيمن - تنزيل - هدىً - قيم - بشير - نذير - حديث - فصل - نجوم - حبل - مثاني.

فالقرآن كله يحمل هذه المواصفات وسواها كلها جملة وتفصيلاً[١].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا في كونه تفصيل أم الكتاب وما أنزل ليلة القدر، فإنه: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢].

ولا في كونه كل كتاب فإنه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

ولا في أنه الحمد تفصيلاً كما أن الحمد هو الكتاب اجمالاً.

ولا في أنه المبشر من قبل حيث التصادق واقع بينه وما بين يديه من كتاب: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] ومثالاً عليه ما في كتاب اشعياء النبي عليه السلام.

ولا في أنه كله وحي السماء حيث يشهد بآياته وبيناته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) هذه الأسماء وسواها تجدها في آياتها حسب مناسباتها.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣٧.

﴿ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] كذلك ويشهد به من أوتوا الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[٣]: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[٤]:

ولا في كونه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كما هو لامح في النابهين غير المتعصبين.

فلم يقل: لا شكّ فيه، حيث الشاكون فيه كثير، وإنما ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حيث الريب هو شك مسنود إلى حجة: أن تتوهم بالشيء أمراً فيكشف عما تتوهمه[٥] فالشك منه مريب ومنه غير مريب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ... وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٦] ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ... وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٧] مهما كانوا كاذبين في ريبتهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى... فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[٨].

فقد تكون الريبة في الدعوة أو في كتاب الدعوة، ولا ريبة في كتب الله ودعاته وقد تكون في المدعوين المرسل إليهم وهم الذين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[٩].

والقرآن لا ينفي الريبة عن قلوبهم: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١٠] ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١١] ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[١٢] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.
(٥) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٠.
(٧) سورة هود، الآية: ٦٢.
(٨) سورة هود، الآية: ٦٣.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(١٠) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(١١) سورة التوبة، الآية: ٤٥.
(١٢) سورة التوبة، الآية: ١١٠.

مُّرْتَابٌ﴾[١] وإنما ينفي الريبة عن نفسه متحدياً كل مفترٍ مرتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . . .﴾[٣].

فليأت من يرتاب فيه بسلطان مبين. ولا نراه منذ بزوغه حجة إلّا داحضة تبوء بالفشل والفضيحة على المفترين، فمن أين يكون فيه ريب ودلالة الصدق واليقين كامنة في مطلعه، ظاهرة في عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٤]!

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾:

القرآن هدى للناس أجمعين دلالة وبياناً: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٥] وهدى للمتقين موعظة وتبياناً: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٦]: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٧] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٨] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٩] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١٠].

وكما التقوى - وهي قبول الوقاية إذا وقي - درجات، كذلك الهُدى التي هي على ضوئها درجات، فمن لا يتقي، فيعاند الهدى تعنتاً ورفضاً لا تحصل له أية هدى بالقرآن، بل ولا يزيده إلّا خساراً، ومن يتقي فهو يقيه

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٤.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٩) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(١٠) سورة الحاقة، الآية: ٤٨.

كما يتقي، درجات بدرجات، وكما تزيد هداه تقوى فهما تتعاملان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[١].

فمن تقوى هي تقوى فطرية وفكرية، إذا وُقي صاحبها عما يناحرهما ويزيدهما وضاءة وقوة يقبلها، والقرآن يحمل ببيناته هذه الوقاية فهو إذاً هدىً للمتقين، فإن الهدى حقيقته وطبيعته، كيانه وماهيته، ولكن لمن؟ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يفتحون مغاليق قلوبهم ويواجهونه بفطرتهم التي فطرهم الله عليها، متحذّرين استهواء الأهواء والضلالات، ومتحرّين الهدى، فعندئذ يتفتّح القرآن عن هداه يسكبها في قلبٍ ترك هواه إلى هداه.

فإذا اهتدى المتقي هكذا هُداه الأولى، ثم اتبع رضوان الله على ضوء القرآن يهديه ثانية سبل السلام: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[٢].

واستقبال أفعال المتقين: «يؤمنون.. يقيمون.. ينفقون. يوقنون» يلوِّح إلى عامة مراتب التقوى، ابتداءً من تقوى الفطرة قبل الإيمان بالقرآن وصالح الأعمال، وانتهاءً إلى الهدى الفعلية إيماناً بالقرآن وعملاً صالحاً للإيمان، ثم هناك مزيد للتقوى بعد هذا الإيمان وبينهما متوسطات.

فلو مضت هنا أفعال التقوى كـ«آمنوا.. أقاموا.. أنفقوا.. أيقنوا» لكانت مواصفات للتقوى الحاصلة بعد الإيمان، فليست التقوى صفة لقوم خصوص آمنوا ثم اتقوا، وإن صدقت لهم أكثر ممن سواهم.

فيا لاستمرارية أفعال التقوى من دلالة تعم درجات التقوى قبل الإيمان

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.